وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
الدراسات العليا / دكتوراه
المادة: استشراق

الاستشراق مفهومه ودوافعه

أ. د. مثنى عباس عواد

مفهوم الاستشراق:

الاستشراق لغة: مشتق من كلمة وهي جهة شروق الشمس، وشرق أخذ في ناحية الشرق، والسين في كلمة الاستشراق يفيد الطلب، أي طلب دراسة ما في الشرق.

أما اصطلاحاً: فهو (علم يدرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضاراتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم).

وعليه فإن العلاقة وثيقة بين التعريفين اللغوي والاصطلاح، فقد أطلق على الدراسة التي تعنى بالعالم الشرقي مصطلح الاستشراق، وأطلق على الغربيين الذي يقومون بتلك الدراسات بالمستشرقين (وهم جماعة من المؤرخين والكتاب الأجانب الذين خصصوا جزءاً من حياتهم في دراسة وتتبع المواضيع التراثية والتاريخية والدينية والاجتماعية للشرق).

هذا هو الاستشراق بمفهومه الواسع، وهناك مفهوم خاص ويعني الدراسات المتعلقة «بالشرق الأوسط» لغته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام، ويطلق على الذين يقومون بتلك الدراسات (بالمستعربين).

أما نشأة الاستشراق فلا يوجد اتفاق بين الباحثين على فترة معينة لبدايته، فمنهم من أرجع تاريخه الى القرون الأولى الميلادية، فيما ذهب العقيقي للقول انه ظهر عند الرهبان الذين قصدوا الاندلس إبان مجدها طلباً للعلم، واشتهر من هؤلاء الراهب الفرنسي جربرت، الذي انتخب باباً لكنيسة روما عام ٩٩٩م، ومنهم من جعل الحروب الصليبية بداية للاستشراق حيث بدأ الاحتكاك السياسي والديني بين الاسلام والنصرانية.

ويرى البعض أن البدايات الأولى للاستشراق تزامنت مع الحروب الدموية التي نشبت بين المسلمين والنصارى في الاندلس بعد استيلاء الفونسو السادس على طليطلة عام ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م، فيما ذهب آخرون إلى أن البدايات الأولى للاستشراق تعود الى القرن الثاني عشر للميلاد حيث كانت أول ترجمة للقرآن الى اللغة اللاتينية وذلك سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م، كما عد أخرون حاجة الغرب للرد على الاسلام ولمعرفة أسباب القوة الدافعة لأبنائه خاصة بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، حيث وقف الاسلام سداً مانعاً لانتشار النصرانية بداية للاستشراق.

إن دافع تفهم العقلية السامية كان سبباً لدراسة اللغة العربية وآدابها وفهم عادات وتقاليد وأديان الشعوب التي ارادوا استعمارها، ولذلك يؤرخ الغرب المسيحي (البدء الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع فينا الكنسي عام ١٣١٢م بتأسيس عدد من كراسي الاستاذية في اللغة العربية، والعبرية والسريانية في جامعات باريس واكسفورد وبولونيا وسلامانكا).

وهكذا استمرت جهود المستشرقين تنصب لدراسة الاسلام وترجمة القرآن الكريم، وكذلك الكتب الادبية والعلمية حتى جاء القرن الثامن عشر وما بعده، حيث تم للغرب استعمار العالم الإسلامي واستولى على كثير من ممتلكاته التراثية واستحوذوا على المخطوطات ونقلوها الى مكتبات الغرب، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام ١٨٧٣م ثم توالت مؤتمرات المستشرقين بالانعقاد.

والذي نراه أن أي عمل في بدايته لا يتضح ويتكامل إلا بعد فترة من الزمن، والاستشراق كذلك، وما دام مفهومه يعني دراسة لغات الشرق وتراثهم وحضاراتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم، فإن دراسة اللغة وترجمة القرآن وغيره من الكتب يعد بداية للاستشراق بصورته الواضحة.

دوافع الاستشراق:

ليس ميسوراً أن نشير إلى عامل واحد أو عاملين في تفسير الدوافع التي حفزت المستشرقين إلى دراسة تاريخ الإسلام وحضارته، ذلك لأن الاستشراق ظاهرة تاريخية معقدة تنوعت دوافعها عبر القرون وتباينت حسب المراحل التاريخية وربما غلب عامل واحد أو أكثر في مرحلة معينة على غيره من العوامل، ولكن الحقيقة تبقى واضحة وهي أن جملة عوامل اشتركت في تحديد معالم الاستشراق ومنطلقاته، ولعل من الدوافع البارزة في تحفيز المستشرقين ما يلي:

١ – الدافع الديني التبشيري:

يعد بعض الباحثين هذا الدافع في مقدمة الدوافع التي حفرت حركة الاستشراق، الذي ظهر أول ما ظهر بين الرهبان في العصور الوسطى، واستمر بعض المبشرين عيوناً لبلادهم التي تعمل بشتى الطرق لإثارة الفتن والاضطرابات من أجل تمكين دولهم الأوربية من السيطرة على العالم العربي الاسلامي سياسياً واقتصادياً.

والمعروف تاريخياً أن قيام الدولة العربية الاسلامية الذي شكل خطراً على أوربا مثل كذلك مشكلة سياسية وحضارية عنيدة للغرب الأوربي المسيحي كان عليه أن يجابهها عسكرياً وعقائدياً، وأن يتعامل معها تجارياً وحضارياً.

إن التراث العقيدي والفكر الأوربي لم يكن كافياً لمجابهة الإسلام كقوة عقيدية وفكرية وسياسية، فلقد كانت الدولة العربية الإسلامية دولة قوية منتصرة، لم تقاوم الهجمات البيزنطية فحسب بل ردت عليها بهجمات موفقة وصلت الى ضواحي القسطنطينية، كما اندفعت القوة العربية الاسلامية لتجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية، وتتوغل في أوربا عبر

الأندلس وجزر المتوسط حتى تصل الى جنوبي فرنسا وايطاليا، ثم واصل العثمانيون عملية الاندفاع الإسلامي في أوربا ففتحوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣م وهددوا فينا بعد أن أشرفوا على سواحل بحر الأدرياتيك.

لم تستطع أوربا الوقوف أمام هذا المد العسكري والسياسي، وقد فشلت الحملات الصليبية المتتابعة، والتي دامت قرنين من الزمان في تحقيق الأهداف الرئيسية للكنيسة والأمراء والملوك في أوربا، واستمرت الحرب سجالاً بين الطرفين.

وليس هذا فحسب، فقد كان الفكر والفلسفة والثقافة الإسلامية أرفع درجات من مثيلاتها في أوربا، ولهذا شكلت تهديداً خطراً على آراء الكنيسة وتعاليمها، لاسيما وأن العلماء والفقهاء المسلمين ردوا على آراء الكنيسة حول طبيعة المسيح وعبادة الصور المقدسة (الايقونية)، كما وان آراء الفلاسفة المسلمين وعلى رأسهم ابن رشد والتي تسربت الى أوربا عبر الاندلس وجامعاتها غذت الحركات المنشقة والإصلاحية في المجتمع الأوربي، التي بدأت تقارن بين المجتمع الاوربي الاقطاعي الزراعي الكنسي والمجتمع الإسلامي التجاري، الذي يمتاز بمدنه الكبيرة، المتحرر من أي شكل من أشكال السيادة الكنسية برجالها الذين يحتلون مكاناً بارزاً في البنية الاجتماعية الأوربية.

وبكلمة واحدة كان الفارق كبيراً، لأنه فارق بين مجتمع متأخر بطيء ومجتمع ناضج متطور، وهكذا كان الفشل السياسي والعسكري العامل الأكثر فعالية وراء ظهور حركة التبشير باعتبارها الوسيلة البديلة حيث غدا الغزو الديني والثقافي بديلاً للحرب التي لم تحقق الهدف المنشود.

وكانت الخطوة الاولى إنشاء مراكز علمية لدراسة تاريخ الإسلام والعرب في أوربا، وكانت الكنيسة الأوربية المبادرة الى ذلك حيث أنشئت أول مركز لدراسة تاريخ الاسلام وعقيدته في طليطلة بالأندلس سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، وحينما عقد المجمع الكنسي في فينا في سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م أقر التقرير الذي أعده ريموندلل الذي دعا إلى إنشاء عدة مراكز لتعليم العربية والسريانية والعبرية في جامعات أوربية مشهورة منها اكسفورد وباريس تحت رعاية الكنيسة الكاثوليكية.

بتأسيس هذه المراكز العلمية في أوربا أصبحت حملة الافتراء والتشويه التي بدأها القديس يوحنا الدمشقي المتوفي سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م والمؤرخ البيزنطي ثيوفانيس المتوفي سنة ٢٠٢هـ / ٨١٧م وبارثلميو الاوديسي (من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) وغيرهم، أصبحت أكثر تنظيماً ودقة وبالتالي أكثر تأثيراً على المجتمع الأوربي ومثقفيه، ولعل أهم أثر

لهذه الكتابات وغيرها هو استقرار الصورة المشوهة والادعاءات المزيفة عن التاريخ الإسلامي والعقيدة في الذهن الأوربي، وتأكيد القناعة – كما يؤكد المؤرخ ساثرين – بأن مواجهة الخطر الإسلامي يجب أن تكون بتكثيف حملات التحريف والتزييف والتشويه والافتراء على الاسلام وأهله، مما دعا الى استمرار امثال هذه الكتابات التافهة عبر العصور الحديثة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد ظهرت في أوساط الكنيسة في أوربا حركة تدعو إلى الاستزادة من معرفة تاريخ الإسلام وعقيدته، وقد حققت هذه الحركة وبتأثير من بطرس الراهب (٥٥١هـ / ١١٥٦م) أول ترجمة للقرآن الكريم سنة (٥٣٨هـ / ١١٤٣م) من قبل روبرت اوف كيتون الانجليزي، وكان هدف هذه الحركة هو محاولة الرد على الاعداء (المسلمين) من خلال نقض عقائدهم وبيان ضعفها وتهافتها، وبلغت هذه الحركة أوجها على يد توما الأكويني (ت٦٢٩هـ / ١٢٣٢م) وروجر بيكون (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) وريمو ندلل (ت ٧١٦هـ / ١٣١٦م)، وكان هذا الأخير، قد أقترح سنة (٧١٢هـ / ١٣١٢م) وجوب اقامة مؤسسات تعليمية جامعية تأخذ على عاتقها مسؤولية تدريس اللغات والأديان الشرقية ومنها الإسلام والعربية، كما اقترح شروع رجال الفكر الديني بدراسة الآراء الفلسفية لابن رشد المناهضة لآراء الكنيسة، وذلك من أجل الرد عليها ودحضها وبيان زيفها.

إن دعوة ندلل إلى إحلال التبشير والحوار السلمي محل الحرب بهدف القضاء على العرب وديانتهم الإسلام جعلته يحتل المقام الأول بين المبشرين المسيحيين الذين نقلوا المعركة مع الإسلام من ساحة القتال الى الغزو الثقافي، هذا هو السبب الذي جعل ارنست رينان الباحث ذو النزعة العنصرية يعتبر ندلل "بطل الحرب الصليبية الثقافية ضد الرشدية (فلسفة ابن رشد) التي كانت عنده هي الإسلام".

إن هذه الصورة التي رسمتها الأقلام التبشيرية مع بدايات الألف الثانية للميلاد لم تتغير ولم تتبدل عبر القرون، بل ظلت تعبر عن موقف خاص تجاه الإسلام وتاريخه تهدف من خلاله ترويج تصورات معينة بعضها مشوشة أو مشوهة أو مبالغ فيها أو مستندة على افتراءات ليس لها دليل يسندها.

٢- الدافع الاستعماري:

ويتشعب هذا الدافع الى الأطماع السياسية والاقتصادية والعسكرية للدول الأوربية في الشرق، وقد حدث مثل هذا الترابط بين فئة من المستشرقين وبين حكوماتهم الأوربية التي استعانت بخبراتهم وثقافاتهم عن البلدان التي يدرسونها من أجل توطيد سيطرتها على المنطقة،

وهذا ما جعل بعض الباحثين الى اعتبار حركة الاستشراق في جانب منها على الأقل تمثل أهدافاً سياسية تتعلق بالمصالح الاستعمارية لأوربا، وتهدف إلى تعريف الدوائر الاستعمارية بتاريخ وحضارة المنطقة عارضة الامور التي بالإمكان استغلالها لتثبيت النفوذ وتطبيق مبدأ فرق تسد.

إن فئة من المستشرقين القائمة على خدمة الاستعمار والضالعة في موكبه وركابه كان لا بد لها أن تقوم بدورها المرسوم فتصور الشرق في صورة الشعوب المتخلفة فطرياً، وأن تولد لدى الشرقيين القناعة اللازمة بتقدم الغرب الاوربي وتفوقه الحضاري الفطري عبر العصور، وأن المسؤولية الملقاة على الشعوب الاوربية من خلال فكرة "عبء الرجل الأبيض" مسؤولية إنسانية حضارية تجاه العقلية الشرقية العاجزة بالفطرة والتي لا تتمتع بالقدرة على التحليل والنقد والتركيب، بل أنها عقلية بسيطة ساذجة تؤثر عليها الخرافات وتفر من التطور.

ثم بعد ذلك تحاول أمثال هذه الدراسات الاستشراقية تأصيل "نزعة محاكاة الغرب" في العقل الشرقي، وذلك من خلال تشجيع المثقفين في الارتباط بأوربا ثقافة ولغة وتقاليد والابتعاد عن الهوية الثقافية والحضارية الشرقية، وانسجاماً مع هذا المنطلق ظهرت العديد من الدراسات الاستشراقية التي بالغت في مظاهر سياسية أو دينية أو حضارية معينة، ونشرتها بين الناس بهدف تمزيق الوحدة الوطنية، أو بث الفتن الطائفية والنزعات العنصرية، كما أنكرت بحوث أخرى أصالة الحضارات الشرقية ومنها العربية الإسلامية، وحاولت بشتى الطرق الملتوية اعادة النظم الإسلامية الى أصول يونانية أو بيزنطية، ولهذا نجد المستشرق بيكر يسمي حضارة العرب بأسطورة حضارة العرب، ويؤكد المستشرق دي بور عدم وجود ما يسمى بالفلسفة الإسلامية قائلاً: "ظلت الفلسفة العربية على الدوام فلسفة انتخابية قوامها الاقتباس الصرف من ترجمات الاغريق"، ويعترف المستشرق برنارد لويس بالنيابة عن مثقفي عصره وبكل صراحة ووضوح تستحق التقدير حين يقول: "إن ما تعودنا عليه في الغرب هو أن يزداد تمسكنا بمثلنا الغربية كلما ازداد اتجاه الشرقيين إلينا، وذلك بجعل أنفسنا مثالاً للفضيلة والتقدم الحضاري، فإذا تشبه الشرقيون بنا فذلك جيد والعكس يعد عندنا شراً، فالتقدم هو في محاكاتنا والتقهقر والسقوط هو في عدم التشبه بنا".

ودعا المستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه إلى سياسة الترابط الثقافي بين هولندا ومستعمراتها في الشرق، لأن هذه السياسة عنده أقوى من روابط الهيمنة بالقوة والسلاح وأقوى على ربط المستعمرات بالوطن الأم.

٣- الدافع العلمي:

مما لا شك فيه أن هناك فئة من المستشرقين اندفعت برغبة علمية صادقة وبدافع ذاتي وهواية شخصية تطورت الى احتراف لدراسة التاريخ الإسلامي، ومحاولة التعرف على الحقيقة قدر المستطاع وحسب جهدها واجتهادها في فهم وقائع التاريخ، وقد ظهرت ومن خلال هذا الجهد العديد من الدراسات القيمة والتي تقدم فائدة علمية في تفسير التاريخ الإسلامي، ولكنها وبنفس الوقت لا تخلو من شطحات أو تحريفات أو تشويهات لها ما يبررها بسبب من جهل أو تقصير في فهم النصوص العربية أو بسبب بيئة المستشرق أو ثقافته أو الافكار التي أثرت أو تؤثر فيه عبر مسيرته العلمية، ولهذا نلاحظ أن المستشرق الواحد يختلف في موقفه من بحث إلى آخر أو مقالة إلى أخرى، وقد يغير في تفسيراته ويبدل في آرائه من كتاب إلى آخر تبعاً لاستزادة معلوماته أو نضجه أو اطلاعه على أبحاث أخرى في مجال التاريخ الإسلامي أضافت إلى معلوماته معلومات جديدة، ولا ننسى نشر النصوص التاريخية العربية وتحقيقها من قبل المستشرقين الذين بلغوا ذروة التفاني وانكار الذات والانزواء في صوامع العلم من أجل المعرفة من أمثال دي خويه (ت ١٩٠٩م) الهولندي وأربري الانكليزي (المتوفى في السبعينات من هذا القرن)، والبارون دي ساسي (ت ١٨٣٨م) وكاترمير (ت ١٨٥٢م) وكازانوفا (ت ١٩٢٦م) وغيرهم، فكثير ما تجد سيرتهم العلمية وأبحاثهم في كتاب (المستشرقون) للعقيقي أو (موسوعة المستشرقين) لعبد الرحمن بدوي وأحياناً في دائرة المعارف البريطانية وغيرها.

ولعل شريحة لا بأس بها من الجيل الجديد من الباحثين الاوربيين المتخصصين بتاريخ الشرق عموماً أو الاسلام خصوصاً، والذين يرفضون أن يطلقوا على أنفسهم تعبير "المستشرقين" سيسرون على نهج هذه الفئة من المستشرقين في دراساتهم التي بدأت بالظهور واتسمت بقربها من الحقيقة والتزامها المنهج العلمي المتجرد قدر الإمكان إذا ما قورنت بالفئة ذات النهج المتزمت.